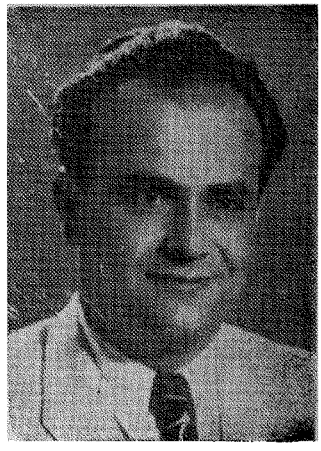

رئيف خوري والتراث العربي

بقلم رضوان الشهال

في الشهر الماضي ، غاب وجه رئيف خوري ، فخلف في ميدان الفكر والادب في لبنان فراغا كبيرا يعمق الاحساس به يوما بعد يوم .
و ((الآداب)) التي كان رئيف خوري أحد اعمدتها الرئيسية تحيي ذكراه بتقديم عدة دراسات عنه في الصفحات التالية ، تتناوله في عدد من وجوه نشاطه الفكري ، واثقة من ان مجال القول فيه لا يمكن ان تملأه صفحات محدودة كهذه الصفحات .

كان يحب حتى الشغف ذاك العالم القديم الحي ، المطوي في خزانات الكتب العتيقة ، والذي يسمونه تاريخ العرب وتراثهم . ما اكثر ما سرح في اقاليمه الواسعة الغنية ، ينتقي من كنوزه الوجوه الكريمة والسيوف والشهامات ، ينفض عنها غبار الزمن ويعطيها للناس الجدد في هذا العصر الجديد . على ان اكثر ولعه كان بتلك المعجزة التي يسمونها الكلمة . وهذا مفهوم . لقد كان اديبا من طراز رفيع حقا .

في الواقع ، كان رئيف خوري واحدا من عشاق الكلمة المخلصين الكبار . ومن الحق ان ابادر الى القول بأن الكلمة لم تكن في مفهومه لفظا يتمحنك به قلم او لسان . لم تكن معنى ممحي الهوية في ضباب المطلق المجرد . وما هذا ، على كل حال ، مما يغري بالعشق أصلا او يوحي به .

وانما الكلمة العربية التراثية ، بكل حقيقتها المادية التاريخية ، بكل ثرائها الحياتي الجمالي ، هي التي عشقها رئيف خوري ذاك العشق الحقيقي الخالص الذي من طبعه ، ابدا ، ان يفرض نفسه مبررا لوجود، حافزا الى عمل . واذن فهي الكلمة الحية التي تحمل في الصميم من لحم حروفها ، وكأنما بضرب من السحر ، خلاصة انسان عربي ، خلاصة أمة كريمة قد كان لها ، خلال عصور مزدهرة كثيرة ، ان تحمل راية الحضارة الانسانية تحميها بالسيف الشجاع من عسف البرابرة والظلاميين ، وتغنيها في الوقت نفسه بكل ما كان لعبقريتها الفذة ان تبدعه من الادب والفكر والعلم والفن ، مشحونا بنوازع الحرية والتقدم وبالقيم الخلقية الشهمة .

على ان رئيف خوري لم يكن على غرار من سبقه من الادباء والمفكرين العرب منذ عهد الانبعاث ، ليكتفي من الكلمة العربية بوجهها القديم العريق ، على فرط ما بقي في هذا الوجه من نضارة حياة وبهاء شباب . بل كان يتطلع من صميم ملامحه النضرة الشابة الى ملامح جديدة انضر حياة واسطع شبابا في مستقبل .

هذا بالضبط ما أشار اليه عمر فاخوري حين قال في معرض التقييم لصديقه ورفيق نضاله : ((رئيف خوري لا يقف على اطلال الماضي مقدار ما يقف على تصاميم المستقبل)) .

وتأكيدا على هذا الاتجاه التقدمي الواضح ، يقول رئيف خوري نفسه ، في فصل من كتابه الممتع (مع العرب في التاريخ والاسطورة) : ((ولولا الشوق الى فهم الحاضر والمستقبل لما كان لتفهم الماضي معنى . والنظر الى وراء جزء من النظر الى أمام)) .

وما دمنا في معرض الاستشهاد بما يضيء لنا سبيل البحث والتفهم لموقف رئيف خوري من التراث ، اجد من المناسب ان ألفت نظر القاريء الى عبارة بالغة الدلالة ، توج بها الصفحة الاولى من كتابه المذكور آنفا ، حيث قال في معرض الاهداء : ((الى الشعب الذي احببته ، وفي احيان كرهته ، كما يكره المرء نفسه ، كرها مشتقا من اعمق الحب)) .

لكم أحس ، من هذه العبارة الموجزة الكثيفة ، عبير الصدق يملأ حاسة الشم عندي . فما أصدق حقا هذا الحب الذي يتفق له ، في احيان ، ان يتلبس شعور الكره — او السخط بالاحرى وهو المقصود لا ريب — تعبيرا عن مقدار ما قد بلغ اليه من عمق ورسوخ جذور . ما أسهل ، على كل حال ، ان نتبين في صميم هذا (الكره المشتق من اعمق الحب) ما ينطوي عليه فعلا من معاناة وجدانية صادقة . بل ما أسهل ان نرد هذه المعاناة نفسها بكل ما احتدم فيها من جدلية نزاع، الى منبعها الحقيقي الوحيد ، وما هو الا الروح الثورية الاصيلة التي كانت تحرك وجدان الاديب الاصيل ، ابن الشعب العربي وتراثه .

وبعد ، فلم يكن القصد من هذه التوطئة الا ان يعرف القاريء من أي نسيج بالغ الاصالة والمتانة قد حيكت تلك الخلفية الوجدانية التي كان يصدر عنها رئيف خوري في ما كان يكتبه ويحاضر به طلابه ومستمعيه حول تاريخ العرب وتراثهم الفكري والادبي . ولابادر الى القول هنا ، فيما يختص بهذه الكتابات والاحاديث أنها لم تكن بمعظمها من نوع الدراسات بالمفهوم الرسمي الجامعي . أقول هذا لمجرد التحقيق الموضوعي . فقد بقي رئيف خوري ، حتى في كتابة التاريخ والابحاث التراثية ، أديبا لا يتخلى قط عن مزاجه الادبي على الرغم مما كان يخالط هذا المزاج من نزوع حازم الى العقلانية العلمية والبحث المنهجي . بقي أديبا يؤثر السياحة والتقاط الكنوز . ولهذا كان اكثر نتاجه في مجال التاريخ والتراث التفاتات مضيئة ولقطات جد ذكية فخواطر بالغة العمق وتصاميم . وهو على كل حال محصول جد ثمين ، غني الكثافة والابعاد ، ومن حقه علينا ان نرفعه امامنا اشارات وعلامات هادية الى طريق يجب ان يشقها من بعده ويعبدها الادباء والباحثون في دنيا التاريخ والتراث.

لا ريب عندي ان رئيف خوري قد كان الرائد في هذا المجال .

يبقى ان اعرض لهذا المحصول آتناوله جملة ، اذ لا مجال هنا لاي بحث يستغرق في التفاصيل . وليكن حسبي ان اكشف منه عن ابرز

ملامحه المضيئة وهي تتلخص بموقف جديد من التاريخ والتراث ، مسلح برؤية جديدة واسلوب في المعالجة جديد .

ولكي نتبين عنصر الجدة في هذا الموقف الجديد ، على نحو كاف من الوضوح ، ينبغي ان نقابل بينه وبين الموقف التقليدي القديم الذي كان يتخذه معظم الباحثين من ادباء ومفكرين ومؤرخين . في الحقيقة لم يكن هناك موقف واحد او موحد . بل كانت مواقف عدة متنوعة ومختلفة تحددها هموم حياتية وفكرية مختلفة كذلك ، باختلاف الاتجاهات والحاجات العامة والخاصة . ولكن على الرغم من كل هذا الاختلاف وهذا التنوع ، يمكن القول بأن هذه المواقف جميعا كانت تؤدي ، على العموم ، الى نتيجة في العمل واحدة ، اذ كانت معالجتها للتاريخ والتراث تشبه الى حد كبير عملية تنقيب عن آثار واستقراء لها في حدود أطرها التاريخية فحسب ، أي بمعزل عن حاجات عصرنا الاساسية الكبرى . وفي أحسن الحالات كانت الدراسة تلبية لحاجات سطحية يغلب عليها الطابع الذاتي (بنوعيه الفردي والقومي الشوفيني) ، كالمعرفة لمجرد المعرفة ، او التبجح بماض مجيد تعويضا عن حاضر غير مجيد ، او ما يتصل عادة بالحاجات الفردية المباشرة كالحصول ، مثلا ، على شهادة دكتوراه في التاريخ او في الادب ، وكالطموح ، مثلا آخر ، الى الظفر بمنبر الاستاذية في جامعة ما ، الى غير ذلك من أغراض وهموم مماثلة . ويخيل لي ، بل أكاد أعتقد ، ان لم أكن مخطئا ، ان دراسات المستشرقين الغربيين ، وهي خالية بمعظمها مما يتصل بحياتنا العربية المعاصرة من هموم جماعية كبرى وآمال مشتركة ومطامح ، قد كان لها اثر بليغ حاسم في توجيه الباحثين العرب الى مثل ما لمسناه عندهم من اغراض سطحية وهموم ذاتية . يقينا اني لا اقصد الى الطمس على جهودهم ولا أنكار ما نتج عنها من فوائد لا تنكر . كل ما أحببت ان اقوله هنا هو ان دراساتهم قد بقيت بعيدة عن ادراك المعنى العميق لتراثنا الفكري والادبي والتاريخي في حياتنا العربية الجديدة ، بعيدة عن ادراك وظيفة هذا التراث .

هذا ما أحببت الوصول اليه فعلا : وظيفة التراث ! وقد وعاها رئيف خوري أعمق وعي . بل كان هو اول من وعاها بكل وضوح وحزم، في ما وسع اطلاعي . ولا شك ان هذا الوعي قد كان شيئا جديدا في تاريخ حياتنا الثقافية . ومن الحق ان نجد في قوله المأثور : « النظر الى وراء جزء من النظر الى امام » تعبيرا ساطعا عن هذا الوعي الجديد الذي حمله ، من بعد ، على اتخاذ موقف جديد من التاريخ والتراث ، موقف محي بكل ما يعنيه الاحياء من طاقة فعل وتأثير . هكذا صار لتاريخنا وتراثنا ، من وجهة نظر هذا الموقف الجديد ، معنى حياتي معاصر . فلقد أخرجهما هذا الموقف من مناخ البيئة المتحفية الاثرية الى شارع الحياة الضاج بالاحداث والناس . خلق لهما وظيفة ينبغي ان يؤدياها في حياة الجماهير العربية الواسعة .

لكم ندرك ضخامة هذه الوظيفة الجديدة وما تنطوي عليه من جليل المهمات ، حين نذكر ان هذه الجماهير الواسعة التي تعد بعشرات الملايين ، وقد شرعت طلائعها ، اليوم ، تخرج الى نهار الحرية والسيادة الوطنية ، قد كانت حتى الامس القريب ما تنفك سجينة ليل هائل جد طويل ، حسابه بالقرون لا بالسنين ، وقد اضاعت في دياجيره ذاتها ، أضاعت روحها وشخصيتها العربية الاصيلة تحت سنابك الطغيان العثماني ودبابات الغرب الاستعماري ، فركام الجهل والفقر والمرض الذي كدسته السنابك والدبابات . فهي اليوم اذ تتطلع الى الحرية والسيادة وامتلاك الاوطان والمصير ، تجد نفسها ، واعية أم غير واعية ، بأمس الحاجة الى استفادة ذاتها الضائعة ، الى امتلاك روحها وشخصيتها العربية الحقيقية ، بكل ما شحنت به خلفيتها الوجدانية العامة من قيم الانسان والحضارة. وانها لمحفوظة في قلب التاريخ في قلب التراث، هذه الشخصية ، تنتظر من يكشف عنها ، من يلملم انقى عناصر جوهرها التاريخي ، ويبدعها من جديد في ضوء ما يتوهج به انسان هذا العصر ، الاشتراكي ، من قيم ومعرفة ومطامح ، ثم ينشرها كالنور والعافية في عيون الجماهير العربية الواسعة ونفوسهم ، اذ لا بد لهذه الجماهير ، بعد كل حساب ، ان تلحق بالعصر الجديد وتبدع الاشتراكية ، هي ايضا ، على أرضها الفنية الواسعة .

الى مثل هذا البعد المنظور ، الموغل في المستقبل يتطلع الموقف الجديد الذي كان رئيف خوري اول من اتخذه من التاريخ والتراث بين ادباء العرب ومفكريهم كافة . ويقيني ان مثل هذا البعد لا بد ان يكون التمع كسهم البرق في عقله العربي الثائر منذ اعوام الثلاثينات من هذا القرن ، أعني يوم كان له ان يستقبل انوار الشمس الماركسية ـ اللينية التي بزغت على الدنيا بالنهار الجديد منذ عام ١٩١٧ وهزمت جحافل الليل القيصري القديم الهرم على سدس الكرة الارضية . فالمادية التاريخية بمنهجها المادي الجدلي هي التي كان لها ، في اعمق تحليل ، ان توقظ في عقل رئيف خوري ذاك الوعي الكبير الجديد ، وان تشحن روحه الثورية ، الشعبية الخامة ، بطاقات جديدة وبرؤية جديدة الى الحياة والانسان والمجتمع والتاريخ ، بالغة الصفاء . هي التي ، في نهاية المطاف ، كان لها ان تضيء امام عينيه تلك العلاقة الجدلية الحية القائمة ابدا بين كل ما هو قديم وما هو جديد ، بين ما كان وما سيكون، بحيث كان له ، هو . بالتالي ، ان يدرك بعين الموضوعية الصافية ان النظر الى وراء جزء من النظر الى امام . وان هذا الامام هو الغاية ومحط النظر .

وبعد ، أتراني بهذا قد نفيت عن رئيف خوري فضلا هو من أهله ؟ العكس هو الصحيح . فلا ريب عندي ، أي ريب ، ان ابرز ميزات أديبنا العربي الكبير ، انه كان في طليعة العقول العربية النادرة التي نهلت باكرا من افكار الماركسية ـ اللينينية ، وتمثلتها بوعي وبصيرة واستنارت باضوائها الكشافة . وفي مجرد هذا الواقع ما يشهد بفضله الكبير على حياتنا الفكرية الجديدة ، كما يشهد له بمزايا عقلية ووجدانية كانت جد نادرة في اوساطنا الادبية والفكرية ، فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية . في رأس هذه المزايا العزوف التلقائي ، اكاد اقول الفطري ، عما كان يسود العقول يومئذ من مفاهيم مثالية ومناهج ميتافيزيقية وآلية عقيمة ، ليس من طبعها ان تؤدي في آخر المطاف ، الى غير نهايات خانقة مسدودة الافاق . وليس هذا ، بالطبع ، ما كان يتطلع اليه الاديب الشاب ، ذو النزعة الواقعية الاصيلة ، الثائر بداهة على الجهل والعبودية واوهام الخرافة ، المحب لشعبه العربي العريق ، والمرتبط به ارتباطا طوعيا ، تلقائيا ، ناشئا عن حبه العميق له . كان رئيف خوري، الاديب الاجتماعي باختصار ، يتطلع يومئذ الى آفاق من حياة العرب ، جديدة ومجهولة . من هنا بالضبط كان له ان يتبنى بسهولة وعفوية بالغة ، النظرية الماركسية لتطور الكون والمجتمع ، وكأنما كان ينتظرها سلفا او كان يحدس ، قبل ان يتعرف اليها ، بضرورة وجودها في عالم الفكر الانساني .

انتقل الى المسألة التالية المهمة جدا ، وهي الرؤية الجديدة الى التاريخ والتراث كما تبدو من خلال كتابات رئيف خوري وأحاديثه . ليس يكفي طبعا أن نصفها بانها كانت رؤية واعية متسعة الافق بالغة العمق والصفاء ، وبانها لم تكن لتضيع في فوضى التراكم الهائل المشوش الذي يسود تاريخنا وتراثنا . ينبغي القول لماذا كانت كذلك . وما هو من الاسرار على كل حال . يبدو لي ، وهو الواقع على كل حال ، انها كانت مجهزة ببوصلة هادية ـ ان جاز مثل هذا التعبير ـ تتيح لها التقييم الموضوعي الحق للاحداث والرجال واعمالهم ، وأراها تتعين على وجه الدقة ، بالنظر دائما الى خط التطور الحضاري الانساني العام الذي يرسمه ، في الاساس الاعمق ، تطور الاقتصاد والعمل المنتج . ينبغي أن أضيف الى هذا المعيار العلمي الثمين المستخلص من نظرية المادية التاريخية ، جهاز المعرفة المتمثل بقوانين الحركة وهي المعروفة باسم المادية الجدلية . ومن طبعها أن تجنب النظر الباحث أخطار الوقوع فيما يسمى بالانتقائية والنظرة الجامدة ذات الجانب الواحد .

ـ التتمة على الصفحة ٧٣ ـ

رئيف خوري والتراث العربي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٧ ـ

وهما العاهتان الفكريتان اللتان نجدهما غالبا ، ان لم يكن دائما ، في أساس الاحكام الاعتباطية والاستنتاجات الخاطئة .

بهذه البوصلة الهادية كان رئيف خوري يقبل على التاريخ والتراث ينظر في مضامينهما بما تعرضه من مآثر وأحداث ومشكلات ، وغالبا ما كان حليفه الصواب والحق حيث كان الآخرون يخبطون خبط عشواء .

هكذا ، مثلا ، لم يكن الاجلال الصادق للامام صاحب « نهج البلاغة » ولمثله الانسانية العليا ، ليحمل العقل الموضوعي المحب للحقيقة في دماغ رئيف خوري ، على تشويه وجه الخليفة الاموي معاوية. كلاهما كان ، في نظره ، من المؤسسين الاوائل الكبار للحضارة العربية ، على الرغم مما كان بينهما من خصومة بلغت حد المجابهة بالرجال والسيوف.

كذلك ، مثلا آخر ، لم يكن رئيف خوري ليسمح قط لنفسه ـ على غرار ما فعل الريحاني سامحه الله ـ بأن يلطخ وجه الحمداني الكبير سيف الدولة ، لمجرد ما انه قد اتفق له مرة ان يقطع المتنبي قرية بفلاحيها وأراضيها والغلال لقاء قصيدة من شاعره العظيم. كان رئيف يدرك أن نظام الاقطاع ـ وما كان منه بد يومئذ لتقدم المسيرة الحضارية ـ هو المسؤول الحقيقي عن مثل هذه الجريرة التي يستنكرها عصرنا اليوم وما كانت موضع استنكار في العرف العام تلك العهود . وانما كان من طبع أديبنا ، وهو المفكر البصير ، أن يركز النظر على السيف الشجاع الشهم الذي جابه به الامير الحمداني جحافل القرون الوسطى الظلامية مدافعا طيلة عشرين عاما عن موسم حضاري باهر كان آخذا في النمو والتفتح ذاك الحين . كذلك لم يكن من طبع رئيف خوري أن يفوته من أمر الحمداني (كيس الفبار) الشهير الذي جمعه الامير البطل حفنة بعد حفنة من ثيابه غب كل معركة من معاركه الكثيرة .

لكم كنت أود لو يسمح المجال هنا بايراد المزيد من الامثلة التي تظهر ، على نحو ملموس ، طبيعة الرؤية الواعية وأسلوب المعالجة لمشكلات التاريخ والتراث عند رئيف خوري . ليكن حسبي هنا ، على سبيل الاختصار ، أن أنوه بروح المسؤولية الصارمة التي كان يأخذ بها نفسه ، وكانت تحمله دائما على ابراز الجوانب الايجابية تلبية للحاجات التربوية الملحة في عصرنا الحاضر . من هنا كان حرصه بل ولعه الدائم أن يمسح غبار الزمن عن الوجوه الكريمة في تاريخنا القديم، مستخلصا (انسانية العروبة) ، على حد تعبيره ، من وجه الزنجي الشاعر أبي الفوارس عنترة ، فنكران الذات أو الغيرية من وجه أبي الصعاليك الفارس الشهم عروة بن الورد « مقسم جسمه في الجسوم الكثيرة » ، فالنزوع الحق الى وحدة العرب من وجه الامير البطل سيف بن ذي يزن ووجوه المغاوير الذين سحقوا عنجهية كسرى في يوم (ذي قار) الى آخر ما هنالك من وجوه تتوهج بالشهامات وقيم الانسان .

أجل .. كان ضمير رئيف خوري مشحونا بروح المسؤولية حيال الشعب ، والى الحد الذي حمله على تكريس حياته كلها وصرف أيام عمره ساعة بعد ساعة في المهنة الاكثر عقوقا في مجتمعنا الجائر الشرس، وهي التعليم . يقينا أنها لم تكن مجرد مهنة بالنسبة اليه . كانت مهمة اجتماعية كبرى فرضها ، هو ، على نفسه طواعية منه والتزاما متوهجا بالاخلاص والحب للشعب ، ذلك في الوقت الذي كان له من مواهبه الفائقة ما يستطيع به ، لو شاء ، أن يعيش في أرفع مستوى من الوفرة والرغد حتى الترف .

ولكنه كان يعشق الكلمة .. الكلمة الجميلة الصادقة المشحونة بالضوء والحياة والقيم والفكر الصحيح . من عشاقها الاوفياء الكبار كان . وكان ، الى ذلك ، يحب أن يزرعها في كل عقل . بل تلك كانت مهمته الكبرى ووظيفته في الحياة . وكأني به كان يحس دائما أن حاجزا كثيفا من صمت الحبر والورق ، من صعوبات النشر وعراقيل تجار الكتب ، فمن الفقر الذي يسحق الشعب المتطلع الى المعرفة ... حاجزا هائلا رهيبا يحول بينه وتحقيق مهمته . لهذا كان يؤثر أن يعلم ... ان يحدث بكلمته الحبيبة تحديثا في المعاهد والمجالس وبصوت حار مؤمن وأمين على النبرة والنكهة والنكتة ، يوصلها مباشرة الى الاسماع والعقول والقلوب ، حرة كالشمس والهواء ، دون وسيط ولا بريد .

مع ذلك لم يبخل رئيف بالكلمة المكتوبة ، وان كان قد مل الكتابة في السنين الاخيرة . فقد ترك لنا مؤلفات ومخطوطات هي من كنوزنا الجديدة ، دون جدال . ولكم يوجعني اليوم ويحرق قلبي حرفا أنه لم يتم تلك الرائعة التي كتب منها فصولا نشرتها مجلة الجندي اللبناني ، أعني سيرة عنترة أبي الفوارس وقد شاء لها أن ترتفع على قلمه الفنان الماهر السبك ، من مستواها الفولكلوري البدائي الى مستوى الذروة التي تتربع عندها الآثار الكلاسيكية الخالدة في العالم .

خسارة فادحة كبرى أن يكون هذا العمل الادبي النفيس قد بقي دون انجاز ولا من ينجزه .

●

ولكن .. أصحيح حقا أن رئيف خوري قد مات ؟

أشهد أن السؤال يطفر من قاع بقلبي ، من عمق ذهول وصدق . وفي داخلي حس غامض مبهم ، كبعض أسرار الحياة ، لا يستطيع التصديق ، بل يرفضه رفضا وباصرار عجيب ، تماما كما اتفق له من قبل أن يرفض وما انفك حتى الآن يرفض بكل اصرار أن يصدق مثلا أن مارون عبود وعمر فاخوري والريحاني والياس أبي شبكة وجبران والمعري والجاحظ والمتنبي حتى امرىء القيس الذي قد هضم الوعر لحمه وعظمه ، قد ماتوا حقا . يقينا أنهم ما انفكوا أحياء يعيشون رغم أنف الموت . تلك هي المعجزة ... معجزة الكلمة التي عشقوها وأعطوها عصارة حياتهم والعار كله . فاذا هي ، من فرط وفاء بطبعها عجيب خارق ، ما انفكت تصونهم كما تصان الكنوز .

يذهب الرجال دائما ويبقى أثمن ما في الرجال . يبقى الانسان الكبير الذي يبدع الفكر والشعر والادب والفن والعلم ومنجزات العلم، يخلق بها جميعا مستقبلا جديدا لانسان وانسانا جديدا لمستقبل . تلك هي الحكاية التي بدأت يوما على كوكبنا في قديم الزمان ، ولن يكون لها قط من خاتمة .

رضوان الشهال

صدر حديثا

ثائر وحب

ديوان شعر

للدكتور ابو القاسم سعد الله

دار الاداب